



عن كل حرمان وجفوة وبهتان يرميه بها المشركون، فلو حرم عطف المشركين، فقد زوّد بعطف رب العالمين بما لا مثيل له في ملأ العالمين، فالله تعالى هو أجره، ورحماته غير المحدودة هي أجره وهما غير مقطوعين عنه في كافة مراحل حياته.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

لأنك تخلقت بأخلاق الله العظيم وتأدبت بآدابه: فما أحسنه وأحلاه أن تكون خلق الرسول محمد عظيماً عند الله، ولا عظيم فيمن سواه تعالى إلا وهو صغير بجنبه! وما أحرأه ﷺ أن يستعظمه ربه في خلقه، ولأنه رباه: «أدبه فأحسن أدبه، فلما أكمل له الأدب وانتهى به إلى ما أراد، قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) إذاً فخلق الرسول هو منتهى ما أراد الله من أول العابدين، ولو كان بالإمكان أن يزيد ل زاد.

فالرسول محمد ﷺ بكيانه ككل، هو منتهى الرحمة والنعمة الإلهية، الممكن إيتاؤها لمن سواه، وما أحلى ما وصفه به سليمان عليه السلام: وَكُوِّلُوا مُحَمَّدًا: وكله في غاية المحمودية^(٢)!

ولتامة خلقه العظيم ولأنه أفضل أو تمام ما أتى به النبيون، يقول ﷺ: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾: لا يقول إن لك خلقاً عظيماً، فقد يملك الإنسان أمراً ثم يفقده، بل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: ف «على» توحى بعلوه على خلقه العظيم، علواً مؤكداً لا يزول، كما توحى حرفاً التأكيد «إن - ل» فقد مزجت الخلق العظيم ذاته لحد لن تنفصل عنها، بعصمة وعناية خاصة ربانية، فلقد

(١) نور الثقلين ٥: ٣٨٩ - عن الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: رواه فضيل بن يسار عنه عليه السلام وروى إسحاق بن عمار إضافة (و انتهى به إلى ما أراد).

(٢) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).



كان خلقه القرآن مزيجاً بقلبه المنير، ظاهراً في أعماله بقلبه وقالبه، فهو هو القرآن الناطق «أنا القرآن والسبع المثاني. وروح الروح لا روح الأواني» فكيف لا تكون خلقه عظيماً وقد تجلى الله لسره بأنوار أخلاقه كما يمكن للمكنات، وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فليكن هو على تمامها قبل تميمها للناس، فلم يبق بعد هذه البعثة الأخلاقية سفاسف أخلاق أبداً إذ أبان لنا عن مصارفها كلها.

وبما أن مادة الخلق من الخلق، فلتكن كما الخلق، كأنها من كيان الإنسان، مخلوقاً معها، وليست إلا بسعيه الجميل، بين عنايتين إلهيتين، فطرة الحق، وتأيد الله لمن يتبنى الفطرة في استزادة من الخلق الطيبة، ثم علوه ﷺ على هذا الخلق، كأنه يجعله أعمق من ذاته وأبقى، كأنه هو الخلق العظيم لا غيره.

وإن سيرة الرسول الأقدس، المجيدة، تتجاوب تماماً والثناء الفريد، شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله: أول العابدين ﴿وَلَنَّاكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ تتردد هذه الشهادة الإلهية في الملاء الأعلى بين النبيين والملائكة، في كلمة لا يعرف مداها وصدائها إلا قائلها ومن ألقى عليه!

وهل يا ترى إن محمداً يفقد توازنه في هذا الثناء المجيد؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم، أو ترى إنه تتأرجح شخصيته وتضطرب تحت وقعه، ويتبهج به، وينسحق تحت ضغطه الهائل فيرضى عن نفسه ويطمئن لها وإليها فيلهو؟ كلا! ولأنه على خلق عظيم، فمن هذا الإنسان الذي يستطيع حمل هذه الرسالة الصعبة ويتحمل أعباءها ووزرها، إلا محمداً العظيم، الذي هو على خلق عظيم؟ أجل: إنه محمد وحده الذي يرقى إلى هذا الأفق المبين.

ثم نجد لهذه الكلمة اللفتة دلالة باهرة على تمجيد عنصر الأخلاق في ميزان الله، وأصالته، كأنه الكل من الحقيقة الإسلامية، ولذلك يعلن: بعث



لأتمم مكارم الأخلاق، كأنما الرسالة المحمدية لا تعني إلا تكميم مكارم الأخلاق.

ليست هذه مبالغة، طالما الأخلاق تشمل الفضائل العقائدية والأعمالية والأقوالية، ومن ثم: فردية وجماعية، ثم بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين مجتمعه، فهل بعث النبيون إلا لهذه، طالما اختصت لغة الأخلاق الحسنة بزاوية خاصة منها هي تحسين العشرة؟ وهي السجايا الفاضلة: المدركة بالبصيرة، ومن ثم: الظاهرة بالبصر.

فللأخلاق معنى عام، وآخر خاص، والأول هو المعني من غاية البعثة المحمدية تكميلاً.

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ وَيُصِّرْهُ﴾ بِأَيِّكُمْ أَلْفَتُونُ ﴿٦﴾ :

مهما كنت بصيراً بحالك القدسية، وإنك كل العقل وكلك عقل، وإن مناوئيك كل الجنون وكلهم مجانين، فأنت أنت تبصر دونهم ﴿فَسَبِّحْهُ وَيُصِّرْهُ﴾: في المستقبل مع بعض، يبصرون كما تبصر ﴿بِأَيِّكُمْ﴾ العقل ﴿أَلْفَتُونُ﴾: المبتلى بالجنة، وبأيكم العقل المتحلل عما يحجبه، المتفتح بما يشرحه ويكشفه، فسوف يكون الإبصار ملياً يوم الدنيا لمن يبصر، وعالياً يوم البرزخ إذ يكشف الغطاء، وأعلى يوم الحشر إذ لا يبقى خفاء، ولات حين مناص.

إن تقولاتهم المجنونة ليست عن جنون خلقي يرفع التكليف، إنما بما جننوا أنفسهم وختم الله على قلوبهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧) :

فما أجهل من يحسب المهتدي الهادي ضالاً، ويحسب نفسه الضالة



مهتدياً، وما أحلى من يعلم الضال عن المهتدي، مهما أخطأ أحياناً في قدرهما أو مواضعهما، وما أعظم علم الله بهما وبكل شيء، إذ لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء! فالضال عن سبيل الله هو المجنون إذ يتجاهل أو يجهل خيره عن شره، والمهتدي هو العاقل.

﴿فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿٩﴾﴾ :

الطاعة المنهي عنها هنا هي مدهنتهم في الدين كما ودوها: ﴿لَوْ تَدَّهْنُ﴾: تداريهم وتماريهم تاركاً جدّ الدعوة إلى الملاينة والمصانعة ﴿فَيَذْهَبُونَ﴾: يمارونك ويدارونك، بقسمة البلد بلدين، بمحاولة أنصاف حلول، وإن هذا إلا مكر يمكرونه دون أن يرجع بالضرر إلا إليك، لو أنهم أنصفوا كما يعدون، ولكنهم كاذبون، فلا تصلح لهم إلا القول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١) فليست الديانة تجارة تقبل الالتقاء في منتصف الطريق، إنها عقيدة تمازج لب الإنسان وعمقه، والتنازل عنها تنازل عن لب الإنسان، والهوة بينها وبين الجاهليات ليست بالتي تعبر، أو تقام عليها قطرة.

إن الرسول ﷺ كان - وكان عليه أن يكون - ألين الناس وأدهنهم فيما لا يمس من كرامة العقيدة والدعوة، وهو أصعبهم تصلباً في الدين، لا يداري ولا يماري أحداً، وهكذا يجب أن تجابه الجاهليات أبداً، بالنضال الفصال الذي لا مدهنة فيه ولا دلال، صموداً صارماً واصباً في دين الله، دون تمحّل فيه ولا تمهّل، وإنما تنكّل بالأعداء المحاربين، السافرين في عدائهم والمنافقين، ولم يكن الرسول يدهن، وكما توحيه حرف الامتناع «لو».

﴿وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ﴾: تبدأ أنت بالمدهانة والتنازل عن بعض الشيء من شريعة

الله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ كما يزعمون ويدعون، وأن رزقهم من شريعة الحق هو التكذيب به: ﴿أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١).

﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿٩٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿٩١﴾ مَنَاجٍ لِلْحَيِّرِ مُعْتَدٍ أَشِيرٍ ﴿٩٢﴾ عُنْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾:

نهى ثانٍ يعم كل من فيه هذه الصفات التسع، وهي رؤوس رذائل الأخلاق، وقد نزلت بشأن ألن الشانئين برسول الله: الوليد بن المغيرة، إذ وقف وقفته العنيدة ضد الدعوة الإسلامية، وكما نزلت في الآيات في «المدثر»: ذرني ومن خلقت وحيداً.. إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً.. سأصليه سقر.. حملات منقطعة النظير ضد هذا الوحيد في كفره وفسقه.. ثم وتشمل الآيات كل من حذا حذوه في هذه الملعنات، الصفات التسع الموبقات:

فهو «حلاف»: يحلف كثيراً، ودون ضرورة ومواربة، مما يكشف عن كثرة كذبه، وعدم اكتراسه واحتراسه بساحة الربوبية.

و«مهين»: حقير الرأي والتدبير لا يثق بنفسه ولا يثقون به، ولذلك يحتاج إلى الحلف الكثير في كل جليل وحقير.

و«هماز»: عياب طعان يلوي شذقيه في أقفية الناس، يعيش همز الناس وكأنه هو وحده بريء.

وفي الحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»: شغلاً عن همزهم وتعيبهم، لا عن نهيمهم، بالحكمة والموعظة الحسنة فإنه فرض.

«مشاء بنميم»: يمشي بين المتحابين بعدائهم لبعض، وبين المتعاندين، ليزدادوا عداً.

«مناع للخير»: يحاول دائماً لصد سبل الخير على الناس، وكان للوليد عشرة من البنين وأموال غزيرة، يهددهم وسائر أقاربه، من تبع منكم دين محمد لا أنفعه شيئاً أبداً.

«معتد»: يجاوز الحق، ويتجاوز على أهل الحق.

«أثيم»: كثير الإثم: وهو كل مبطئ عن الخير والثواب، وكأن الإثم أصبح لذاته لازماً لا يستطيع تركه!

﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنِمٌ﴾: والعُتْلُ هو الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، والعُتْلُ هو كثير الأخذ هكذا، فهو الأخذ بمجامع الرذائل، يجرها إلى نفسه وإلى مجتمعه بعنف، لفظة تخبر بجرسها عن مدى معناها في العتل السوء، وجره وجمعه: فهو الغليظ الجافي المريد، الشره المنوع العتيد، الأكل الشروب الحريص العنيد، اللئيم «الزنيمة»: الذي لا أصل له وهو زائد في قومه، الدعي الملحق بمن ليس هو منه «زنيمة» ليس يعرف من أبوه - بفي الأم ذو حسب لئيم» ويا لها من رذائل قلماً تجتمع في شخص واحد، اللهم إلا وحيداً: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(١)! وكل هذه الميوعة والرعونة:

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾:

أساطيرهم وخرافاتهم، رغم أنها آيات الله، تدل بنفسها أنها إلهية وليست بشرية، ولو من أعقل العقلاء، فضلاً عن الرجعيين الخرافيين!

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾^(١٦):

سنعلمه بعلامة يعرف بها على خرطومه: أنفه، إذ بلغ في استكباره لحد كأن له الخرطوم، والفيل يبالى بخرطومه ويفتخر، وكذلك هذا الزنيمة يشمخ بأنفه: إن كان ذا مال وبنين؟



إن خراطيم المستكبرين موسومة بالحق يوم الدنيا، يعرف وسمتها وصمتها العارفون ثم يوم البرزخ والرجعة^(١) والقيامة. تبرز الوصمة وتعلم، ولكي يعرفهم المحشورون معهم أجمع: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾^(٢).

ولقد وسم الله وحيداً على خرطومه «أنفه» يوم بدر إذا صاب أنفه جراحة فادحة بقيت علامتها كما قيل، ووسمه الله يوم البرزخ، وسوف يسمه يوم القيامة شر وسمة ووصمة يعرف بها بين أهل الجمع أنه الوحيد الشرير الأثيم الزنيم.



(١) القمي في آية الوسم: قال: قال عليه السلام في الرجعة إذا رجع أمير المؤمنين عليه السلام ورجع أعداؤه فيسمهم بميسم معه كما توسم البهائم على الخراطيم: الأنف والشفطان. أقول: وهذا من باب الجري على بعض المصاديق المختلف فيها. (تفسير الفرقان - ج ٢٩ - م ٥).
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤١.



﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَتْهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

مشهد من مشاهد التخلف والتمرد يحمل طرفاً من بلوى الدنيا لمن أجمل عن ذكرهم بـ ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: بستان ملثف الأشجار، يجن بعضها بعضاً، لحدّ استحق اسم الجنة التي قلّما تعني الدنيوية.

هذا المشهد يصور جانباً من اللؤم البشري: «اللااستثناء» فيما رزقهم الله من نعمته، تعامياً عن حقوق الفقراء، تفانياً في جمع المال لماً.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾: هؤلاء الكفار المتهمين لك بالجنون، فابتلوا بعذاب الدنيا وبلائها قبل الآخرة^(١) ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾: البستان الملثف

(١) القمي عن الباقر عليه السلام في الآية: إن أهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي أصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له: الرضوان على تسعة أميال من صنعاء.

الأشجار ذات الثمار ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾: بالله تعالى حلفاً به سبحانه ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴿١٨﴾: لا استثناء بمشيئة الله في صرمهم ثمارهم مصبحين، ولا استثناء لحقوق الفقراء بعد صرمهم، ويا له من حلف خاطئ لا يلزم عليهم شيئاً إلا ازدواجية الإثم: بحق الخالق والمخلوق، فقد قرّ رأيهم هكذا على أن يصرموا: يقطعوا - ثمارها عند الصباح الباكر، مُبَيِّتِينَ هذا الكيد اللئيم إذا ناموا، ولكي يفاجئوا الفقراء بصرمهم ولا يستنون لهم شيئاً، فقبلوا بمفاجأة العذاب الصارم قبل صرمهم، فصرم الله ثمارهم قبل صرمهم،

﴿طَافَ عَلَيْهَا﴾:

الجنة.

﴿طَافَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾:

طائف رباني يذكر الغافلين التائهين: أن الصرم بالصرم، والجَرم بالجَرم، جزاءً وفاقاً!

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾:

كما احتالوا في حرمان الفقراء النائمين.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ ﴿٢٠﴾:

كالمقطوعة ثمارها، المقطوع عنها كل خير، كالرملة المنقطعة عن الرمال ليس فيها نبات، أصبحت كالليل المظلم في سوادها بصرمها، فقد صرم الطائف الرباني كل خيراتها فأصبحت قفراً لا ماء فيها ولا كلاء، وكل هذه يشملها الصريم.

﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعْدُوا عَلَيَّ حَرْبَكُمْ إِنَّكُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾:

تواصياً في حماس وحرص وحراس.

﴿فَانْطَلِقُوا﴾:

مروا متخلفين كأنهم يفرون من أسد.

﴿وَهُمْ يَخِفُّونَ﴾:

تخافتا في الإقدام وفي الكلام، وتخافتا في وطء الأقدام، سداً لباب الاطلاع، وصدأً عن دخول المساكين:

﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ (٢٤):

الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة، فلا يتحرك إلا بغية تحصيل بلغة العيش ولقمته، فهؤلاء اللثام يحتالون هذه الحيل، كي لا يفاجئهم مسكين، ففاجأهم قبل صرمهم صرم من رب العالمين، فأصبحت كالصريم!

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدَرِينَ﴾ (٢٥):

غدوا أمام أملهم الوحيد ﴿عَلَى حَرِّ﴾: منع عن حدة وغضب، ممتنعين من تناول الثمر وصرمه إذ وجدوه صريماً، ﴿قَدَرِينَ﴾: لم يمكنهم صرمه وهم قادرون عليه لو كان، فلم يمنعهم عجزهم عن صرمه إلا انصرامه قبلهم فماذا يصرمون؟، وقادرين على منع الفقراء بهذه الحيلة لولا الصرم الإلهي، فهم على قدرتهم في الصرم وفي منع الفقراء، امتنع لهم صرم الثمرة بانتفاء الموضوع! ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ﴾ منع للمساكين - ﴿قَدَرِينَ﴾: مقدرين أنهم سيصرمونها ويمنعونها المساكين،

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾:

الجنة.

﴿قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ﴾:

عن الصواب في غدونا هكذا، أو ضللنا عن طريق جنتنا! إذ لم تكن تشبه جنتهم ولا أية جنة! ثم نظروا إليها ثانية فتأكدوا أنها هي، ولكنها - ويا



للعجب - صريمة خاوية على عروشها، فعدلوا عما احتملوا من ضلال الطريق، إلى ضلال الصراط، وهو الحرمان الإلهي عما أملوا:

﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (٢٧):

هذا هو الخبر اليقين، وقد حاقت بهم عاقبة البطر والمكر، ثم حاق بهم التنديد الشديد من أوسطهم: أعدلهم وأعلمهم في الرأي، بين مفراطهم ومفرطهم:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَرَأَيْتُمْ أَفَلَّ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨):

وهنا يفتحون الآذان للناصح وقد فات الأوان، ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾: ولم يكن منهم من عدم التسبيح إلا ترك الاستثناء في حيلة ومحاولة حمقاء، فتزويه الرب تعالى في صفاته، من لزامه الاتكال عليه، والاستثناء بمشيئته: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾. فعدم الاستثناء بالمشيئة استقلال لمشيئة العبد، وشركة مع الله في المشيئة المستقلة، وتزويه تعالى فيما سن من أحكام العدل، وتطبيقه، ومنه الاستثناء للفقراء، فعدمه شركة معه في التشريع، ومحاولة لعدم تطبيقه، صداً عن نفاذ حكمه من ناحيتين: عدم استثناء لهم، وعدم فسح المجال لهذا الاستثناء على أية حال! إذ انطلقوا مصبحين إلى حرثهم غادرين، فراراً عن تحقق حكم الله!

وهنا لم يكن إلا الاعتراف بنزاهة الرب وظلمهم أنفسهم:

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾:

منتقصين حق الفقراء، وبحق الرب تعالى إذ حاولنا الفرار عن حكمه، فباغتتنا بطائف منه فأصبحت كالصريم.

وإنهم على حد تعبير الرسول الأقدس ﷺ: «قد حرموا خير جنتهم بذنبهم»^(١).

(١) الدر المشور ٦: ٢٥٣ عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: إياكم والمعاصي، إن =



﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَمَّزُونَ﴾ (٣١):

كلّ يوجه اللوم إلى الآخر، قبل أن يوجهه إلى نفسه، ولكنهم تنبهوا أخيراً أنهم ملومون أجمع، مهما كان اللوم مزدوجاً على من ضل وأضل، وفرداً على من ضل، أو تماشى مع الضالين كأوسطهم، فاعترفوا جميعاً بطغيانهم:

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ (٣٢):

طاغين على ربنا في هذا التدبير الماكر فراراً عن حكمه، وعلى المساكين فراراً عن دخولهم جنتنا، وأخيراً طاغين على أنفسنا أن خسرتنا الجنة بأسرها: في ظلمات ثلاث! فهل من مجير؟ أجل - وما دامت المهلة باقية ولما يأت الأجل، ومن أوليات الواجبات على التائبين الاعتراف بالذنب، راجين رحمة رب العالمين، وقد فعلوا:

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ (٣٣) عَنِ رَبِّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (٣٤):

فالرغبة إلى الرب - وفي توبة نصوح - هي التي تستجلب توبة الرب على العبد، ما لم تكن خوف العذاب، وإنما رغبة الرضوان والثواب، فالإيمان عند رؤية البأس لا يفيد: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُدَّتْ أَلَّهُ أَلَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ...﴾ (١) هذا! اللهم إلا إذا كان إيماناً صادقاً وإن كان عند رؤية البأس كما في قوم يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢).

= العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنَ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٦) فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ [القلم: ١٩-٢٠] قد حرّموا خير جنتهم بذنوبهم.

(١) سورة غافر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨.



هذا - ولكنما العذاب في أصحاب الجنة كان عليها لا عليهم إلا في جنتهم، ولكي ينتبهوا، وقد فعلوا قبل حلول الأجل، فعلّهم مغفور لهم.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾:

عذاب التدمير والتذكير في الدنيا،

﴿الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣):

وإنما عذاب الدنيا مهما تفاقم، نموذج ضئيل عن عذاب الآخرة.



﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُمْ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ (٣٤) :

إنها ليست عندية مكانية إذ ليس له مكان، وإنما عندية من حيث القرب المعرفي، والثواب، وكما يوحىها ﴿رَبِّهِمْ﴾ : ربوبية الثواب والمعرفة جزاءً وفاقاً، بما اتقوا، كما المجرمون لهم النار بما طغوا، وهذا هو الحكم العدل، وسواه عادل عن الصراط.

﴿أَفَجَعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥):

برهان عقلي لضرورة المعاد الحساب بصيغة السؤال: أتسوية بين المسلمين لله والمجرمين؟ فنعذب المسلمين كالمجرمين! أو نغفو عن المجرمين كما عن المسلمين، أو نثيب المجرمين كما نثيب المسلمين، أو لا نحیی المسلمين كما المجرمون على حدّ زعمهم!.

نستوحي من الآية وأشباهاها أن هناك زعماً خاطئاً من المجرمين. يزعمونهم كأنهم الأصل في المعاد الحساب واللامعاد: إن الله يعامل المسلمين كما يعامل المجرمين سواء: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١) ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢) كأن صناديد يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها، فقاسوا بها الآخرة قائلين: إن صح أنا نبعث كما محمد يزعم، لم تكن حالنا إلا كحالهم سواء، أو أحسن، فخطأهم الله فيه.

ففي قصة الجزاء ضروب شتى من أفكار خاطئة:

١ - إن الله سوف يجعل المسلمين كالمجرمين سواء، فالإسلام هو اللاشيء في حساب الحق! فما يستحقه المجرم فالمؤمن يستحقه سواء أكان اللاحساب، أم الحساب السوء، أم العفو، أم الإثابة، والمجرمون هم الأصول على أية حال، وهذا من أضل ما يتقول حول الحساب!

٢ - إن الله سوف يغفو عن المجرمين كما عن المسلمين، بما اختلقوا من فلسفات توحى كأن العذاب لا دافع له إلا الوعد الإنذار!

٣ - أو يجعلهم كالمؤمنين في الثواب أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا

(١) سورة السجدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٨.

يَحْكُمُونَ... ﴿١﴾ وما إلى ذلك من تقولات نبحت عنها في طيات الآيات التي تحملها.

فهنا وهناك تأتي الأسئلة الاستنكارية تلو بعض دون جواب، ولأنه واضح يعرفه كل من له أدنى مسكة:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾؟

أبحكم العقل أو العدل يسوى بين الفريقين؟ كلا!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ﴿٣٧﴾؟:

هكذا حكم خاطئ، لا يقبله عدل ولا عقل، ولو كان فهو كتاب مجنون ظلوم يحكم:

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾:

كما تهوون،

﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾:

أن الله حلف لكم بحريتكم في هكذا حكم لا يمضيه عقل ولا عدل؟

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾:

يزعمه عن الله لنفسه. أو عن العقل أو كتاب من الله، وهو تهكم ساخر عميق، أنيق بليغ يذيب القلوب حرجاً.. وإذ ليس هذا الحكم لا إلهياً ولا بشرياً، فهل هو من شركاء لهم:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿٤١﴾:

شركاء لهم عندهم براهين أخرى على هذه الدعوى الزور الغرور؟ أم



شركاء يزعمونهم أنهم آلهة من دون الله يسوون بينهم وبين المسلمين؟ أم شركاء يزعمونهم شفعاء عند الله يشفعون لهم في هذه التسوية الظالمة غير العادلة، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، صادقين في كيان الشركاء وصدقهم، وأنتى لهم ذلك!

فهكذا حكم لا يملك من صنوف البراهين أيّاً كان، وإذ لا ينتبهون هنا فسوف يعلمون:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة، التي تتطلب المعاركة، ويفزع عندها إلى الممانعة، فتشمير الذيل حينذاك أمكن للقراع، وأصدق للمصاع، كذلك وأحرى عند هول الأمر وشدته، وعظم الخطب وفظاعته، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام في الآية: أفحم القوم ودخلتهم الهيبة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم ظالمون^(١).

ففي هذا اليوم العصيب هؤلاء الأوغاد يدعون إلى السجود، استمرارية التكليف ليوم ليس فيه تكليف، فرعاً طبق الأصل وعنه، فلا يستطيعون السجود، إذ تركوه يوم الدنيا، فلا يستطيعونه يوم الدين، فمستطاع الطاعة وواقعها يوم الدنيا، مستطاع يوم الدين، وتركها رغم الاستطاعة هنا، ترك لها هناك: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ ففقدوا سلامتهم هناك لتركهم الاستسلام لله هنا، ومرض اللااستطاعة للطاعة لزمهم ليوم الدين، ولكي تكون لهم عذاباً فوق العذاب: عدم استطاعة الطاعة إذ ظهرت لهم الحقائق كلها! وكما عن الرسول ﷺ: يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود



فيسجد المؤمنون، وبين كل مؤمنين منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود ويجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخاً وصغاراً وذلاً وندامة وحسرة^(١).

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ...﴾: تغشاهم ذلة بقهر، ولأنهم لم يذلوا أنفسهم يوم الدنيا طوعاً، فليذلوها قهراً يوم الدين: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ فالآن وهم مرضى بما افتعلوا، لا يستطيعون السجود.

وقد يعني الكشف عن الساق كشف الحجاب فظهور الحقائق، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس ﷺ: «يكشف عن نور عظيم فيخرون له سجداً»^(٢) وعن حفيده الرضا عليه السلام «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود»^(٣).

فساق المحشر يكشف، وساق المحشورين يكشف، وليس لله ساق يكشف، رغم المختلقات الزور، الوثنية والإسرائيلية: إن ربنا يكشف عن ساقه^(٤) اللهم إلا أن يعني بها ساق الآخرة وحجابها وعذابها.

﴿ذَرَفِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهَذَا الْحَدِيثِ سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

وعذاب الاستدراج يعم المكذبين بآيات الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) الدر المنثور ٦: ٢٥٥ عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله قال:

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٥٤ عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

(٣) نور الثقلين ٥: ٣٩٥ عيون أخبار الرضا عليه السلام.

(٤) الدر المنثور ٦: ٢٥٤ عن النبي ﷺ (يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً).

أقول: وقد خيل إلى من لا يعقل أنه ساق ربنا سبحانه وكما في الدر المنثور ٦: ٢٥٥ عن سعيد ابن جبير أنه أجاب عن سؤال الآية بعدما غضب غضباً شديداً: إن أقواماً يزعمون أن الله يكشف عن ساقه! وإنما يكشف عن الأمر الشديد.

وفي نهج البلاغة: أنه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجاً فقد من مخوفاً.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

هل يكذب هذا الحديث، الذي تصدقه كافة براهين الصدق، حديث الله وطاعته ومحشره وحسابه؟!

ثم ما لك وهذا الكذاب الأشر؟ ذرني وإياه: أنا الخالق الجبار الكبير الكبير، وهذا المخلوق المستكبر الهزيل الصغير المسكين الفقير، هذه الهبأة المنثورة! هذا العدم! فما حاله إذاً أمام جبروت القهار العظيم.

أنا أنا استدرجه نحو العذاب بتواتر النعمة، التي يحسبها له كرامة، وأمهله على نعمته ولا أهمله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(١) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

إنه الأمان في ظل النعم المتواترة تلو بعض، ولكنه الفخ الذي يقعون فيه مغرورين، استدراجاً لهم إلى أسوأ مصير، واستنزالاً لهم إلى أسفل سافلين شيئاً فشيئاً بما ينعم عليهم مرة بعد أخرى وهم يزدادون عتواً ونفوراً، يحسبونهم على حق وإنهم يحسنون صنعاً، وإلا فلماذا تواتر النعم عليهم وتوثرها على المسلمين، وهذا هو عذاب الاستدراج.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٣):

والإملاء والكيد المتين من رب العالمين هو من أسباب الاستدراج، أن يتدرج إلى الأسوأ فالأسوأ نتيجة الإملاء والإمهال وهذا هو كيد الله المتين، ليس لأنه ضعيف، وإنما جزاء كيده بكيد متين لا هوان له ولا علاج، خلاف سائر الكيد من غيره تعالى، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد شراً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

الله ﷻ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) بالنعم عند المعاصي^(٢) .

ويا لها من وخزة بعد أخرى، إلى أن يأخذه الله نكال الآخرة بعد الأولى! وأن ذلك بما كسبت يده وأن الله ليس بظلام للعبيد، فقد كذبوا من حيث يعلمون، فالله يستدرجهم من حيث لا يعلمون، جزاءً وفاً!

وإنه لشر العذاب يوم الدنيا، الاستدراج بالإملاء والإمهال، بكيد متين لا مفر عنه ولا منجى، وكما نرى المكذبين هكذا يستدرجون، تدرجاً إلى العتو والضلال، على تدرج النعمة والدلال، أعاذنا الله منه بحق محمد والآل.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾^(٣) :

تتمة أسئلة الاستنكار على المجرمين المسوين أنفسهم بالمسلمين: هل تسألهم أجراً على الرسالة وهم مثقلون مثاقلون من مغرمها، فهم لا يقبلونها أو يقبلون إليها فضلاً عن أن يفكروا في أجرها، وليس أجر الرسالة في حساب الرسول إلا المزيد من تحقيقها وتطبيقها، دون الأجور المادية وحاشا الرسول عنها! : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(٣) فليتخذ الرسول ﷺ سبيلاً إلى ربه، ثم أبواب الرسول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٤) وليس هذا أجراً، فإن المودة في قربي الرسول تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى: ﴿قُلْ مَا سَأَلُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢ .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في كتاب علل الشرايع عنه ﷺ :

وفي روح البيان ج ١٠ ص ١٢٤ عن أمير المؤمنين علي ﷺ (من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله) وروي أن رجلاً من بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولم أنت لم تعاقبني؟ فأوحى الله إلى نبي زمانه أن قل له: كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر كونها عقوبة: جمود عينك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٧ .

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣ .

لَكُمْ^(١) إِذَا فَلَ أَجْرَ يَسْأَلُ: لَا مَادِيًّا وَلَا مَعْنَوِيًّا، إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا، أَجْرَ يَرْجِعُ لَصَالِحِ الْمَعْطِيِّ دُونَ الْمُسْتَعْطِيِّ، إِلَّا صَالِحِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَتَطْبِيقِهَا، الْمَشْتَرَكِ بَيْنَ أَصْحَابِهَا.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾: فَإِذَا لَا مَانِعَ مِنَ الْإِيمَانِ عَقْلِيًّا وَوَاقِعِيًّا، وَلَا دَافِعَ إِلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ، فَلَا يَبْقَى مِنَ الْمَوَانِعِ إِلَّا ثَقُلَ الْأَجْرُ، وَأَنْتَ لَسْتَ بِسَائِلِهِ: ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾: وَلَكِي يَثْقُلُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ ثَقُلَ الْمَغْرَمِ الْأَجْرُ، وَبَدَلًا مِنْ سَوَالِ الْأَجْرِ، أَنْتَ تَعْدُهُمْ أَجْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ مَغْرَمٍ يَثْقُلُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَيُدْفَعُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، لَا مَادِيًّا وَلَا مَعْنَوِيًّا، وَإِنَّمَا شَهْوَاتُهُمْ وَحُرِيَّاتُهُمْ فِي حَيَوَنَاتِهِمْ هِيَ الَّتِي تَرُدُّهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ وَبُئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا!

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٤٧):

فَتَلَكُ شَهُودُهُمُ الْخَاطِئَةُ الْمَارِقَةُ الْمَارِدَةُ، فَهَلْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ غَيْرَ الْخَاطِئِ فَهُمْ يَكْتُبُونَ مِنْهُ هَذِهِ التَّقُولَاتُ الزُّورُ؟ فَمَا لِهَذَا الْغَيْبِ - إِذْنٌ - يَغِيبُ عَنِ الْعَدْلِ الْمَعْقُولِ، وَوَاجِبِهِ الْحِفَازِ عَلَى الْعُقُولِ وَتَوَجُّيْهِهَا إِلَى الْمَعْقُولِ؟.. كَلَّا فَلَا شُهُودَ يَفِيدُونَهُمْ وَلَا غَيْبَ يَشْهَدُ لَهُمْ، وَهُمْ عَلَى حَالِهِمُ الْمَزْرِيَّةَ صَامِدُونَ فِي التَّكْذِيبِ، ثَابِتُونَ عَلَى التَّأْنِيبِ، فَلَا سِلَاحَ يَكْفِاحُونَ بِهِ إِلَّا الصَّبْرَ لِحُكْمِ اللَّهِ أَنْ يَكْفِيكَ بِأَسْهَمٍ وَتَعْسَهُمْ:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ^(٤٨) ثَوَلَا أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبْذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ^(٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٥٠)﴾:

يَا حَامِلَ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ، عَلَيْكَ أَنْ تَصْبِرَ فِي بِلَاغِهَا، صَبْرًا صَامِدًا، دُونَ فَشَلٍ وَلَا فِرَارٍ عَمَنْ أَرْسَلْتَ إِلَيْهِمْ مَهْمَا كَلَفَ الْأَمْرَ، فَاثَبْتَ حَتَّى يَأْتِيكَ

أمر الله وأنت صامد وهم فاشلون ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ : ولا كأي من حملة الرسالات الذين غلبوا على أمرهم وقل صبرهم، فهذه وأمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية وحقولها، إنها لك زاد ورصيد، لتكون أنت صاحب الحصاد الأخير، والزاد والرصيد الأخير، فتعينك على العبء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء، في كافة القرون والأجيال، نبراساً تنير به الدرب على المستنيرين، ومتراساً تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت - يونس بن متى - رسالة جزئية مؤقتة إلى قوم خصوص، فلم يتحمل أذاهم، وانكفاً إناء صبره فدعى عليهم وخرج من بينهم فحبسه الله في بطن الحوت، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة، والمرسل إليهم؟ وكما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ قوله :

«كان رجلاً تعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداواة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها، وإنه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حملة..»^(١).

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام كتب أمير المؤمنين عليه السلام قال : حدثني رسول الله ﷺ أن جبرائيل حدثه أن يونس بن متى بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلاً تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمداواة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل حمل أوتار النبوة وأعلامها، وإنه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حملة، وإنه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتباعه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان، اسم أحدهما روبييل والآخر تنوخا، وكان روبييل من أهل بيت العلم والنبوة والحكمة، وكان قديماً الصلبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة، وكان تنوخا رجلاً مستضعفاً عابداً زاهداً منهمكاً في العبادة، وليس له علم ولا حكم، وكان روبييل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها، وكان تنوخاً رجلاً خطاباً يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه، وكان لروبييل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبييل وحكمته وقديم صحبته. فلما رأى أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر، فشكا ذلك إلى ربه، وكان فيما شكا أن قال : يا رب إنك بعثتني إلى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك والتصديق برسالتني وأخوفهم عذابك ونقمته ثلاثاً وثلاثين سنة فكذبوني ولم يؤمنوا بي وجحدوا نبوتي واستخفوا برسالتني وقد توعدونني =

وإلى تفصيل حاله في بعثته ورسالته: ﴿وَإِنْ يُؤْخَذِ لِمَنْ أَرْسَلْنَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنَتْهُ بِالْعِرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَلْبَتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴿١﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴿٢﴾.

= وخفت أن يقتلوني، فأنزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون، فأوحى الله إلى يونس: أن فيهم الحمل والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف المهين وأنا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا أعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي، أحب أن أتأناهم وأرفق بهم وأنتظر توبتهم، وإنما بعثتك إلى قومك لتكون حيطاً عليهم تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم، وتأنأهم برحمة النبوة، فاصبر معهم بأحلام الرسالة، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي، العالم بمداواة الدواء، فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرفق، وتسسهم بسياسة المرسلين، ثم سألتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك، وعبدني نوح كان أصبر منك على قومه وأحسن صحبة وأشد تأنياً في الصبر عندي، وأبلغ في العذر، فغضبت له حين غضب لي، وأجبت حين دعاني، فقال يونس: يا رب إنما غضبت عليهم فيك، وإنما دعوت عليهم حين عصوك، فوعزتك لا أنعطف عليهم برأفة أبداً، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي، وجحدهم نبوتي، فأنزل عليهم عذابك فإنهم لا يؤمنون أبداً، فقال الله: يا يونس إنهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي، يعمرّون بلادي، ويلدون عبادي، ومحبتني أن أتأناهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك وتقديري وتدييري غير علمك وتقديرك، وأنت المرسل وأنا الرب الحكيم، وعلمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم منتهاه، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له، يا يونس قد أجبتك إلى ما سألت، أنزل العذاب عليهم وما ذلك يا يونس بأوفر لحضك عندي ولا أحمد لشأنك وسيأتيتهم العذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس فأعلمهم ذلك فسر يونس ولم يسؤه ولم يدر ما عاقبته. أقول: وفيه إن الله رفع عنهم العذاب لما آمنوا، وسجن يونس في بطن الحوت وكما في الآية ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨].

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٣٩-١٤٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

إنه أبق إباق العبد من مولاه، أبق من تكميل الرسالة وتتميم الدعوة، مغاضباً مع قومه، فظن أن لن يقدر الله: يضيق الله: عليه في هذا الإباق، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو ملهم نفسه أن كان من الظالمين: المنقصين في بلاغ الرسالة، ولولا أن تداركه من ربه نعمة التسييح للبت في هذا السجن إلى يوم يبعثون، فنبذه بالعراء لما سبح، وأرسله ثانية إلى قومه: إلى مائة الف أو يزيدون، فآمنوا فمتعهم الله إلى حين: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: حكم الاستقامة في الدعوة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابٍ مَّعَكَ﴾^(٢) ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(٣): هذا - وحكم الله في هؤلاء الماردين يوم الدنيا ويوم الدين، يوم في حريق الحرب كما حان حينها منذ الهجرة، ويوم في حريق النار يوم القرار ولا فرار!

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْهُوْتِ﴾: يونس صاحب السجن الحي السابح في اليم، إذ نادى ربه فيه ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل، وتركه واجب التأجيل ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُ رِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: أن كظم غيظه وغضبه، ووفقه للتوبة والتسييح ﴿لَنُذِ بَالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ولكنه سبح ربه وتاب فنبذ بالعراء وهو ممدوح، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾^(٤) ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٤) دون نبذ بالعراء مذموماً أو ممدوحاً، لو أنه ترك كل الواجب قديماً وفي السجن، ولكنه كان من المسبحين هنا وهناك، ولقد نجاه تسييحه أن نبذ

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣، ١٤٤.

بالعراء، وكان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسييح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم، ومن التوبة النصوح، وكظم الغيظ، فنبد بالعراء ممدوحاً ﴿فَاجْبَنُ رَّبُّهُ فَعَجَّلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: لتكميل الرسالة: ﴿فَبَدَّنَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ (١٤٥) وَأَبْلَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِنِ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَتَأَمَّنُوا فَمَزَّجْنَاهُمُ إِلَى حِينٍ (١٤٨) ﴿١﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾:

الإزلاق هو إزالال القدم حتى لا يستقر على الأرض، والإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت والإبغاض عند النزاع والخصام، كأن هؤلاء الكفار - وعند سماع الذكر الذي لزامه التذكير - كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة، وليمسوا من كرامته بألستهم الناقدة: ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ رغم أن كيانه ذكر للعالمين ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وهل يعقل أنه بنعمة ربه مجنون، وهم بنقمة عقلاء، فما لهم كيف يحكمون؟

ثم وهل للعين تأثير عفوي، دون محاولة خارجية فيما يراد؟ عله يكون أحياناً، ولكنه لغير المؤيدين المدركين بالعصمة الإلهية، فقد كاد الكفار ليزلقوه ولن يزلقوه، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي، مهما كادوا له كيداً ومادوا عليه ميذاً، وكادوا ليزلقوه بأبصارهم، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين! هذا كله، رغم أن: «العين حق» (٢) و«العين تدخل الرجل القبر والجمل

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٤٥-١٤٨.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٥٨ أخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

القدر»^(١) و«أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين»^(٢)، كما يروى عن الرسول الأقدس ﷺ تأثيرات نفسانية سيئة تبتدئ بالعين، وكما لسائر المحاولات الشريرة آثار، إلا أن يشاء الله غيره ﴿وَمَا هُمْ بِصَّائِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣)!

﴿وَيَقُولُونَ﴾ قولتهم الكافرة المجنونة: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ فهل لأنه لا يمشي ممشاهم ولا يهوى هواهم؟ ﴿وَمَا هُوَ﴾: قرآن محمد ومحمد القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾: كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر، ولكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية، ويرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء.

إنها في هذا الوقت المبكر والضيق المستحكم تعلن عن عالميتها، دون أن تكون هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة، وإنما كانت ثابتة في صلب الدعوة منذ بدأت في أيام مكة الأولى، وكذلك تستمر إلى الأيام الأخرى، لو أن حملتها لم يهملوها ويمهلوا أعداءها للنيل منها، إنها لم تعرضها معارضات من دواخلها وخوارجها، فإن هذه الدعوة مستمرة مستزادة في ذاتها ومعطياتها.

فمهما تقولوا عليها فرية الجنون، لكننا العقلاء سوف يعرفون مدى عقلها على تقدم العقل والعلم، ومدى جنون المفترين عليها الزور!

(١) الدر المنثور ٦: ٢٥٨ أخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال:

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٥٨ أخرج البزاز عن جابر أن النبي ﷺ قال:

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.